ملامح التفكير التداولي في كتاب البيان و التبيين أفعال الكلام أنموذجا

الباحثة: إيمان زابور
جامعة عبد الرحمن بن خلدون- تيارت (الجزائر)
Hcima17@hotmail.com

تاريخ الإرسال: 2019/10/24 تاريخ القبول:2019/12/24 تاريخ النشر: 2019/12/31

الملخص:

تهدف هذه الدراسة إلى فحص الأفعال الكلامية في كتاب البيان و التبيين ،و إلى فحص مبادئ التداولية في التراث العربي و توضيح أهم محور من محاورها "نظرية أفعال الكلام" من خلال الدرس التداولي المعاصر.

وسنرى أن أصناف الفعل الكلامي في كتاب البيان و التبيين قد تمظهرت في أساليب إنشائية و خبرية،و أن الأغراض الانجازية اختلفت و تعددت حسب المقام .

الكلمات المفتاحية: التداولية ؛الأفعال الكلامية؛الخبر و الإنشاء؛الجاحظ؛البيان و التبيين

Abstract:

this stady aims at clarifging the principles of délibération in the arab heritag and clarifing the most important axis of its axis and émotions of speech through the contempory deliberative lesson ,a chose the book (al bayane and tabyine) and definition, which is considered the most important pillars of the ancient arab heritage modle.

The passed word : Pragmatiqe; acte of parol; news and construction ; aljahiz; albayan and altabyin.

مقدمة:

لم يعد التياران البنيوي والتوليدي التياران الوحيدان اللذان يهيمان على ساحة الدراسات اللسانية، فقد أفرزت المعرفة المعاصرة نظريات ومفاهيم لغوية متباينة في الأسس المعرفية، انبثقت عنها تيارات لسانية جديدة منها التيار التداولي، وهو مذهب لساني يدرس علاقة النشاط اللغوي بمستعمليه وطرق و كيفيات استخدام العلامات اللغوية بنجاح، والسياقات والطبقات المقامية المختلفة التي ينجز ضمنها الخطاب، والبحث عن العوامل التي تجعل "الخطاب" رسالة "تواصلية" واضحة و"ناجحة" والبحث في أسباب الفشل في التواصل باللغات الطبيعية..[(1)]

أولا: مفهوم التداولية

التعريف اللغوي: ورد في معجم لسان العرب في مادة "د،و،ل". تَدَاولنا الأمر أي أخذناهُ بالدُّولِ وقالوا: دَوَاليكَ، أي مداولة على الأمر.ودَالت الأيام دَارَتْ والله يُدَاولُهَا بينَ النَاسِ. وَتَداولتهُ الأيدي: أخذَتْهُ هذه مرّة وهذه مرّة [(2)]إذن فالمعنى العام للفظ (داول) هو أخذ مرة بمرة أي بالتوالي.

ثانيا: التعريف الإصطلاحي

يعد تعريف موريس للتداولية أقدم تعريف في الدرس الغربي الحديث، حيث قال:"إن التداولية جزء من السيميائية التي تعالج العلاقة بين العلامات ومستعملي هذه العلامات"[(3)].

أما عند العرب فنجد طه عبد الرحمان الذي يعود له فضل ترجمة و تعريب المصطلح الفرنسي " la pragmatique"إلى العربية التداولية حيث يعرفها بأنها "دراسة اللغة في الاستعمال أو في النصوص in interaction"، لأنه يشير إلى أن المعنى ليس شيئا متأصلا في الكلمات وحدها ولا يرتبط بالمتكلم وحده، ولا السامع وحده، فصناعة المعنى تتمثل في تداول اللغة بين المتكلم والمخاطب في سياق محدد، مادي، اجتماعي، لغوي وصولا إلى المعنى الكامن من كلام ما[(4)].

ثالثا: أفعال الكلام

إن اللغة حسب أوستين ليست مجرد وسيلة للوصف ونقل الخبر، بل أداة لبناء العالم والتأثير فيه، وعليه فموضوع البحث في الدرس التداولي يتمحور بالأساس حول ما نفعله بالتعابير التي ينطق بها، بهذا إذن يكون أوستين قد تقدم بنظرية بسط القول فيها عبر جملة محاضرات ومقالات ضمتها نظرية بخصوص (الأفعال اللغوية) التي خرجت تحت عنوان واحد-بعد وفاة صاحبها-وهو (كيف تنجز الأشياء بالكلمات)(**how to dothingswithword**) [(5)].

مفهوم فعل الكلام:

أصبح مفهوم الفعل الكلامي (**speech act**) نواة مركزية في الكثير من الأعمال التداولية، وفحواه أنه كل ملفوظ ينهض على نظام شكلي دلالي – إنجازي تأثري، وفضلا عن ذلك يعد نشاطا ماديا نحويا يتوسل بأفعال قولية **locutoires actes**إلى تحقيق أغراض إنجازية(**acts illicutoires**)، كالطلب، الأمر والوعد والوعيد...الخ، وغايات تأثيرية تخص ردود فعل المتلقي كالرفض والقبول، ومن ثم فهو فعل يطمح إلى أن يكون فعلا تأثيريا، أي يطمح إلى أن يكون ذا تأثير في المخاطب ومن ثم إنجاز شيء ما.

وبالرجوع إلى ما كتبه الفيلسوفان **جون أوستين** وتلميذه **جون سورل** حول هذا المفهوم اللساني التداولي الجديد، يتبين أن الفعل الكلامي يعين الإنجاز الذي يؤدي المتكلم بمجرد نطقه لمنطوقات معينة، ومن خلال منظومة من الأفعال كالنطقية، والإنجازية، والتأثيرية [(6)] فالفعل الكلامي هو العنصر الأساسي في التداولية إذ يسعى إلى التأثير في المخاطب وإنجاز شيء ما.

مرحلة النشأة:

جهود جون أوستين حول نظرية أفعال الكلام :

تعد نظرية الأفعال الكلامية مجالا من مجالات البحث اللساني التداولي، إذ لم تكن أهمها على الإطلاق، فقد كان بدء الحديث عن الأفعال الكلامية عند **جون أوستين** هو بداية الحديث عن التداولية،"فاتضح الارتباط بين الموضوعين وارتبطت الجهود المقدمة حولها في البداية بجهود هذا الفيلسوف الإنجليزي أوستين"[(7)].

تصور جون أوستين:

جاءت نظرية أوستين مناقضة للفكرة السائدة عند الفلاسفة الذين درسوا المعنى في إطار ما عرف بالمعنى القضوي(**prepositional meaning**) للجملة التقريرية الخبرية، وهذه الجملة يمكن الحكم عليها بالصدق والكذب.

يرى أوستين أنه ليست كل الجمل جملاً خبرية، وأن اللغة يمكن أن تستخدم لتنجز وعدا أو تصريحا أو زواجا أو تعميدا...إلى غير ذلك من الأفعال التي يقترن القول فيها بإنجاز الفعل[(8)].

كما يرى في نظريته أن كثيرا من الجمل والعبارات التي يشملها الحديث ليست خبرية، ولا تخضع لمفهوم الصدق والكذب، فاللغة تشتمل على أسئلة وعبارات تعجب وأوامر وتعابير خاصة بالأمنيات والتطلعات وعبارات الترهيب والترغيب والتشجيع.

وقد توصل أوستين في بداية نظريته إلى نوعين من الأفعال:

الأول:أفعال تقريرية(constative locutions) الثاني: الأقوال الأدائية(locutions performative)التي تنجز لها في سياقات خاصة للدلالة على معاني الأفعال التي لا تصنف بالصدق والكذب، مثل التسمية والوصية والاعتذار والرهان والنصح والوعد[(9)].

رأى أوستين أن تمييزه بين الأفعال الإنجازية والأدائية غير موفق فاستدرك هذا بالإجابة على سؤال طرحه: كيف تنجز فعلا حين ننطق قولا؟[(10)]

وقد قسم أوستين الفعل الكلامي الكامل إلى ثلاثة أفعال فرعية وهي كالتالي:

أ-فعل القول أو (الفعل اللغوي) (locutoire Acte): ويراد به إطلاق الألفاظ في جمل مفيدة ذات 0ناء نحوي سليم وذات دلالة،ففعل القول يشتمل بالضرورة على أفعال لغوية فرعية وهي المستويات اللسانية، لكن أوستين يسميها أفعالا (الفعل الصوتي، الفعل التركيبي، الفعل الدلالي).[(11)]

الفعل المتضمن في القول(illocutoire Acte): وهو الفعل ألإنجازي الحقيق إذ "إنه عمل يُنْجزُ بقول 0ما" والأفعال الإنجازية هي العنصر الأساسي في النظرية برمتها[(12)].

الفعل الناتج عن القول(Acte perlocutoire): وهو المتكلم الذي يتسبب في نشوء آثار في المشاعر والفكر ومن أمثلة ذلك: الإقناع، التضليل، الإرشاد، وهناك من يسميه الفعل ألتأثيري[(13)].

قدم أوستين تصنيفه للأفعال الكلامية على أساس ما سماه قوتها الإنجازية(**illocutionary force**) وهذا من خلال محاضرته الأخيرة فجعلها خمسة أصناف، لكنه لم يتردد في القول بأنه غير راض عن هذا التصنيف[(14)].

1-أفعال الأحكام (verdictives) وهي التي تعتبر كما يدل المصطلح عن حكم يصدره محلف، أو محكّم، أو حَكَم مثل: يبرئ، يقدر، يعين...

2-أفعال القرارات(exrcitives): التي تعبر عن اتخاذ قرار في صالح شيء أو شخص أو ضده مثل: يأذن، يطرد، يحرم، يجند، يختار، يوصي...الخ[(15)].

3-أفعال التعهد: (commussives): وهي التي تعبر عن تعهد المتكلم بفعل شيء أو إلزام نفسه به مثل: أعد، أتعهد[(16)].

4أفعال السلوك أو السلوكيات:(Behabitives): وهي ترتبط بافصاحات عن حالات نفسية تجاه ما يحدث للآخرين أو بالسلوك الاجتماعي ومن أمثلتها: أعتذر، شَكَرَ، هَنَأَ[(17)].

5أفعال التبيينيات(expositives): وهي توضح علاقة أقولنا بالمحادثة أو للحاجة الراهنة ومن أمثلتها: أتيت، أنكر، أجاب، اعترض[(18)].

مساهمة سيرلفي المرحلة الأساسية للنظرية: قد ينظر إلى مساهمة سيرل في هذه النظرية على أنها محاولة وضع حدود واضحة لأطراف النظرية، وسيفهم هنا بالإشارة إلى المساهمات التالية:[(19)]

1-قدم سيرل شروط إنجاز كل فعل، إلى جانب بيان شروط تحول فعل من حال إلى أخرى[(20)].

2- قام بتعديل التقسيم الذي قدمه أوستين للأفعال الكلامية فجعله أربعة أقسام أبقى منها على قسمين ألإنجازي والتأثيري، لكنه جعل الفعل اللفظي قسمين:

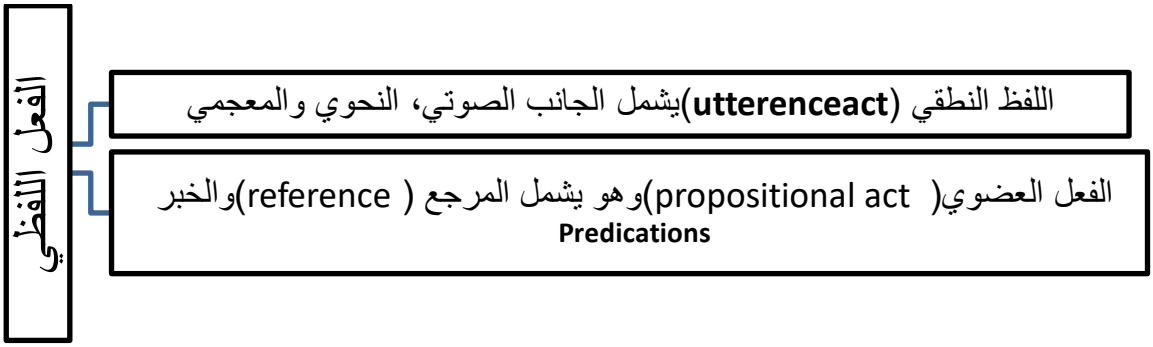

ونص على أن الفعل العضوي لا يقع وحده بل يستخدم مع فعل انجازي في إطار كلامي مركب، يركز على المقصدية من القول[21].

3-رأى سيرل أن الفعل الكلامي أوسع من أن يقتصر على مراد المتكلم، بل هو مرتبط بالعرف الاجتماعي واللغوي.

4-استطاع سيرل أن يطور تصور أوستين لشرط الملائمة أو استخدام(**Felicity conditions**)التي إذا تحققت في الفعل الكلامي كان موفقا فجعلها أربعة شروط وهي كالتالي:

1-شرط المحتوى العضوي(**propositional content**)

2-الشرط التمهيدي(**preparatury**)

3-شرط الاخلاص(**sencerity**)

4-الشرط الأساسي(**essential**).

وقد أعاد النظر في تقسيم لم يكتف سيرل بهذه الشروط بل تعدى الأمر إلى وجود على الأقل اثني عشر بعدا، أوستين لأفعال الانجاز فبين ما فيه من أوجه الضعف واعتمد في تقسيمه على أساس منهجي واضح هو الغرض الإنجازي، وجعلها خمسة أصناف وهي[22]:

1-الاخبارية(assertives): الغرض منها هو نقل واقعة ما.

2-التوجيهات(directives): وغرضها الإنجاز بمحاولة المتكلم توجيه المخاطب إلى فعل شيء ما.

3-الالتزاميات(commissives): وغرضها الإنجازي وهو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل[23].

4- التعبيريات(experssives): غرضها الإنجازي هو التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوفر فيه شرط الإخلاص.

5-الإعلانيات(declarations): والسمة المميزة لهذا الصنف من الأفعال أن أدائها الناجح[24].

التمييز بين الأفعال الإنجازية المباشرة وغير المباشرة: انطلق سيرل من تمييز أوستين بين الأفعال الإنجازية الصريحة، والأفعال الإنجازية الأولية فخطا في هذا الاتجاه خطوة واسعة فميز بين الأفعال الإنجازية المباشرة والأفعال غير المباشرة[25].

-**مفهوم الفعل المباشر**:الأفعال الإنجازية المباشرة عند سيرل هي التي يتطابق فيها مراد المتكلم فيكون معنى ما ينطقه مطلقا مطابقة تامة وحرفية لما يريد أن يقول[26].

2-**مفهوم الأفعال غير المباشرة**:الأفعال الإنجازية غير مباشرة هي التي تخالف مراد المتكلم، فالفعل ألإنجازي يؤدى على نحو غير مباشر من خلال فعل إنجازي آخر[27].

الفعل الكلامي في الدرس العربي:

أما الفعل الكلامي في الدرس العربي الإسلامي نجده محصورا ضمن الظاهرة الأسلوبية المتمثلة في "الخبر والإنشاء وما يتعلق بها من قضايا وفروع مكافئة لمفهوم أفعال الكلام عند المعاصرين"[28].

ومن أهم علماء اللغة العربية في التراث العربي القديم "الجاحظ"،فقد راعى في مدونته تطبيق مايعرف اليوم بالتداولية ،فجعل لكل مقام مقال ،واهتم بعناصر الخطاب و كذا العوامل الخارجية و الداخلية التي تساعد على عملية التواصل و في هذا المقام يقول سويرتي :"إن النحاة و الفلاسفة المسلمين ،و البلاغيين والمفكرين مارسوا المنهج التداولي قبل أن يضيع صيته بصفته فلسفة و علما ،و رؤية و اتجاه أمريكيا وأروبيا ،فقد وظف المنهج التداولي في تحليل الظواهر و العلاقات المتنوعة "[29].

الأفعال الكلامية في المدونة :

إن نظرية أفعال الكلام تتجاوز نظرتها للغة على أنها أداة أو وظيفة تواصلية و فقط ،بل تنظر إليها على إنها أداة لتغيير العالم و صنع أحداثه و التأثير فيه ،"و الفعل الكلامي يراد به الانجاز الذي يؤديه المتكلم بمجرد تلفظه بملفوظات معينة و من أمثلته :الأمر، النهي، والوعد، والسؤال، والتعيين، والإقالة، والتعزية، والتهنئة"[30].

فالفعل الكلامي هو فعل غايته التأثير في المتلقي إما بالإيجاب أو السلب ،و بالتالي تحقيق غرض انجازي معين تعددت الأفعال الكلامية عند الجاحظ بحكم أن الكتاب موجه إلى مخاطب، وهو يحمل في ثناياه رسالة إما أن يستقبلها المتلقي بالرفض أو بالقبول ،فتنوعت الأفعال الكلامية في الكتاب من أفعال مباشرة إلى أفعال غير مباشرة ،ومن الفعل القضوي إلى الفعل السياقي، و الفعل الاستفهامي...

الفعل الكلامي في المدونة:

يتحدث الجاحظ عن البيان و يوظف الشاهد التداولي "أفعال الكلام" أيما توظيف ،فقد كان الجاحظ عالما كبيرا استطاع توظيف النظرية التداولية في كتابه فهو يقول على لسان جعفر بن يحي:"البيان أن يكون الاسم يحيط بمعناك و يجلى عن مغزاك ،وتخرجه عن الشركة ،ولا تستعين عليه بالفكرة ، والذي لابد له منه،أن يكون سليما من التكلف ،بعيدا عن الصنعة بريئا من التعقد،غنيا عن التأويل "[31]

نجد هذا التعريف يحمل صيغة خبرية ،ونجد الجاحظ قد قسم الكلام إلى قسمين، قسم الأخبار، والقسم الثاني للإنشاء و الخبر عند القدماء بصفة عامة يحمل فعلا كلاميا بدوره هذا الفعل يحمل غرض أو

قوة انجازيه تحتمل إما الصدق أو الكذب و هذا ما تشير إليه النظرية التداولية ،لكن الجاحظ يرفض ثنائية الصدق و الكذب بل قدم تقسيما أخر لا يوسم الخبر فيه بالصدق أو الكذب على النحو الأتي :

القسم الأول: الخبر الصادق و هو الذي يطابق الحكم فيه الواقع مع اعتقاد المخبر له او عدمه

القسم الثاني :الخبر الكاذب وهو الذي لا يطابق فيه الحكم الواقع مع اعتقاد المخبر له أو عدمه

أما القسم الثالث :هو الذي سماه الخبر غير الصادق لا الكاذب وهو الذي يطابق فيه الحكم الواقع أو لا يطابق مع عدم اعتقاد المخبر له

نجد الجاحظ من خلال هذا التقسيم يرفض ثنائية الصدق أو الكذب ،فالخبر لا يحمل هذه الثنائية في نظره و تجاوزها إلى تقسيم ثالث و هو السياق ترك الحكم للواقع و الظروف المحيطة بالخبر .

ففي تعريفه للبيان وظف أفعال كلامية مباشرة الغرض منها الإيضاح و التبيين و الإبانة منها"تخرجه،تستعين ..."

كما قد تختلف الأفعال الكلامية من مباشرة إلى غير مباشرة باختلاف قوتها وغرضها ألانجازي .

ففي كلام أبي بكر الصديق رضي الله عنه لعمر رحمة الله عليه حين استخلفه عند موته قال:" إني مستخلفك من بعدي ، وموصيك بتقوى الله .إن لله عملا بالليل لا يقبله بالنهار ،وعملا بالليل ،وأنه لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضة "(32).

يحمل القول أفعال كلامية مباشرة الغرض منها النصح و الإرشاد ،أما الفعل الكلامي غير مباشر الغرض منه الترهيب و التخويف من عظمة و قوة الله عز وجل .

ومن الأفعال التي اعتمدها سيرل في تقسيمه و هي :

1:الالزاميات **commissives**:وغرضها ألانجازي هو التزام المتكلم بفعل شيء في المستقبل

وقد وردت في كتاب البيان و التبيين في عدت مواضع منها مايلي .

كلام النساك في الزهد قال الحسن :"لا تزول قدما ابن ادم حتى يسال عن ثلاث:شبابه فيما "أفناه ،و ماله من أين كسبه و فيما أنفقه "

يحمل هذا القول أفعال كلامية إلزامية ،الغرض ألانجازي منها هو التزام الطاعة لله وحده و عمل الخير "،وكسب الحلال.

أما الفعل الثاني :

2:الإخباريات **assertives**: الغرض منها هو نقل واقعة ما

مثال ذلك ما ذكر في الفصاحة ،و كان عبد الأعلى بن عبد الله بن عامر من أبين الناس و أفصحهم و كان مسلمه بن عبد المالك يقول : " إني لا أنحي كور العمامة عن أذني لأسمع كلام عبد الأعلى "

يحمل القول فعل كلامي إخباري ، الغرض ألانجازي منه هو الإخبار عن مدى فصاحة و جودة هذا الكلام ، و أن الكلام البليغ لا تطرب الأذن لسماعه .

نستنتج أن الفعل الإخباري " لا أسمع " فعل كلامي مباشر الغرض منه هو نقل حادثة أو غرض معين و القول يحمل صيغة خبرية و هي مدى فصاحة و بلاغة عبد الله بن عامر .

3 : التعبيريات EXPERSSIVES غرضه ألانجازي هي التعبير عن الموقف النفسي تعبيرا يتوفر فيه شروط الإخلاص و الهدف منها " هو التعبير عن حالة نفسية ذاتية تجاه واقع الأشياء من خلال محتوى قضوي يفترض صدقه " مثال ذلك قول الرسول عليه الصلاة و السلام حين ذكر الأنصار فقال : (أما و الله ما علمتكم إلا لو تقلون عند الطمع ، و تكثرون عند الفزع).

هذا الحديث يحمل شهادة حق ، إنها شهادة رسول الله عليه الصلاة و السلام في الأنصار ، فإنهم يقلون عند مواطن الطمع أي عند تقسيم الغنائم و الثروات ، و يكثرون عند الفزع أي عند الحروب ، فهذه الحالة النفسية التي شعر به رسول الله عليه الصلاة و السلام اتجاه الأنصار ، دفعته إلى هذا القول

نستخلص مما سبق ذكره إن المقصود من الفعل الكلامي هو التطبيق سواء كان هذا التطبيق برفض أو بالقبول و الهدف منه هو التغيير وجهة نظر ما

هوامش البحث:

[1]مسعود صحراوي، التداولية عند علماء العرب "دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي"، ط1، دار التنوير، الجزائر، 2008، ص3.

[2] ابن منظور، لسان العرب، مادة دول"، ط1، دار المعارف، القاهرة، دت، ص1456

[3]ينظر أحمد فهد صالح شاهين ،النظرية التداولية و أثرها في الدراسات النحوية المعاصرة ،ط1،عالم الكتب الحديث الأردن ،2015 ص 10

[4] ينظر أحمد فهد صالح شاهين، النظرية التداولية وأثرها في الدراسة النحوية المعاصرة، ، ص10.

[5]:ينظر العياشي أدراوي،الاستلزام الحواري في التداول اللسانس من الوعي بخصوصيات الظاهرة إلى وضع القوانين الضابطة لها،منشورات الاختلاف الجزائر،ط12011،ص77

[6]:ينظر مسعود صحراوي،التداولية عند علماء العرب ،54-55

[7]:ينظر محمود عكاشة ،النظرية البرجماتية اللسانية التداولية دراسة المفاهيم النشأة و التطور،مكتبة الآداب ،القاهرة ،ط1،2013،ص98-99

[8]علي محمود حجي الصراف ،في البرجماتية الأفعال الانجازية في العربية المعاصرة،مكتبة الآداب ،القاهرة ،ط1،2010،ص72

[9] ينظر محمود عكاشة،ص97

[10]المرجع نفسه، ص97

[11]:المرجع نفسه ،ص97

[12] المرجع نفسه،ص97

[13]:مسعود صحراوي،التداولية عند علماء العرب،ص41

[14]:المرجع نفسه ،ص42

[15]:المرجع نفسه،ص42

[16]:محمود أحمد نحلة،أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر،دار المعارف الجامعية ،الإسكندرية،دط،2002،ص69

[17] :المرجع نفسه،ص69

[18] :المرجع نفسه ،ص69

[19] :السيد هاشم الطبطبائي،نظرية الأفعال الكلامية بين فلاسفة اللغة المعاصرين و البلاغيين العرب ،مطبوعات جامعة الكويت ،الكويت ،دط ،1994،ص10

[20] المرجع نفسه، ص11

[21]:المرجع نفسه،ص13

[22] :خليفة بوجادي ،في اللسانيات التداولية مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم ،بيت الحكمة ،الجزائر ،2009،ص96

[23] :محمود أحمد نحلة ،أفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر ،ص71

[24]:المرجع نفسه، ص73

[25]: ينظر: ابتسام بن خراف، أفعال الكلام في قصة كليم الله موسى عليه السلام، مجلة كلية الآداب واللغات، بسكرة، ع12، 2013، ص241.

[26]:الجاحظ ،البيان و التبيين ،،ج3،ص45

[27] :المصدر نفسه،ج2،ص159

[28] :م ن، ص55

[29] :م ن، ص56.

[30] :ينظر: ابتسام بن خراف، أفعال الكلام في قصة كليم الله موسى عليه السلام، مجلة كلية الآداب واللغات، بسكرة، ع12، 2013، ص241.

[31]:الجاحظ ،البيان و التبيين ،،ج3،ص45

[32] :المصدر نفسه،ج2،ص159